


# جدلية الثقافة والمعرفة المعاصرة.. المعاني والمضامين

إبراهيم الصعبي *

*كلمة «الثقافة» مشتقة من فعل «ثقف» ومعناه ظرف، وصار حاذقاً خفيفاً، ومنه تثقيف الرمح، بمعنى تسويتها وإزالة عقدها حتى تصبح مستوية وخفيفة، فالرمح المثقف هو الرمح السوي الخالي من العقد. وجاءت كلمة ثقافة ترجمة Culture الإنكليزية، وهي كلمة تعني الحضارة والثقافة في الفرنسية Culture ومعناها الحرفي «الزرع» فهي التعليم الذي يغرس المعرفة في النفوس، أما الثقافة -بالمعنى الذي نستخدمه- فإن الكلمة المناسبة هي «المعرفة»، والمثقف بالتالي هو الذي يحيط بكل معارف عصره سواء تبحر فيها وتعمق أم توقف عند حد ما.*

* أديب وباحث سوري.

العمل الفني: الفنان شادي العيسمي.

الحضـــارة تراكمــات معرفيــة، وهي - في تعريــف جوردون تشايلــد- ما يستخلصه الإنســان مــن غذائــه ومجتمعــه الإنساني ونواحــي السلوك الإنســاني المختلفة من لغة وديــن وفلسفة وقانون وأخــلاق، فضلاً عن أدوات الإنتــاج التــي يستخدمها، والحضارة -في تعريــف آخر- «حصيلــة من الذكريات، تعبر عن نفسهــا في شكل نظم فكرية تكشف عن كنهها في كل مظاهر الحياة اليومية، وفي حصيلــة المعارف المتوارثة التي تحدد الممنوع والمرغــوب فيه قــولاً وفعــلاً، وفي كل شكل من أشــكال الإبداع التــي تفهمها الجماعة، وتكتشف فيهــا أبعاد إدراكهــم للمحدود في حياتهم واللامحدود فيما وراء أفقهم المحسوس (نبيلــة إبراهيم: المقومــات الجمالية للتعبير الشعبــي -هيئــة قصور الثقافــة- ص٥٨». ومقابــلاً لذلك فإن مفهــوم الثقافة -بمعناه الاجتماعي والعلمي- يختلف كثيراً عن معناه العام، فهو يعني الــتراث الاجتماعي لمجتمع مــا، ويتضمــن كل ما يمكن تعلمــه بوساطة العلاقات الإنسانيــة المتداخلة، كما يتضمن اللغة والعادات والتقاليد والنظم الاجتماعية وغيرهــا -في أحد التعريفــات- كل ما يكون الإنســان. ولعلي أميل إلى قول ماركس -دون دعاوى أيديولوجية مــن جانبي- إن الثقافة لا تنفصــل عن الأوضاع التاريخية التي يبدع بها البشــر حياتهم المادية، وأزيد بأن تعريفنا للثقافة يجب أن يكون متعلقاً بالكيف لا الكم. وكما يقول تايلور فــإن الثقافة، أو الحضارة بمعناها الإثنوغــرافي الواسع، هي ذلك الكل المركب الذي يشمــل المعرفة والعقائد والفن والأخلاق والقانون والعــرف، وكل القدرات والعــادات الأخرى التي يكتسبها الإنسان من حيث هو عضو في مجتمع ومن هنا فإني أفضل تجاوز تقسيم الثقافة إلى عناصر غير مادية، وصــولاً إلى تحديد الثقافــة بأنها مجموعة من الفلسفــات والعلوم والمعتقدات والقوانين والأعــراف والمثل والتقاليــد والأخلاق التي تتسم بها الشعوب. وذلك كله يرتبط بالسلوك، بأكثر مــن ارتباطه بمجرد العلــم والمعرفة. لنفرق -بدايــة- بين المعرفة، أو التعلم، وبين الثقافة، ربما أذكــر بعض الأسماء أو المعاني التــي ترفضهــا ثوابت المصطلحــات، لكني أتحدث عن قناعاتــي الشخصية، عن الآراء التي تعبر عن محصلة تأملاتي ومناقشاتي - بيني وبين نفسي، وبيني وبين ما أقرأه وأستمع إليــه وأشاهده، المعرفة مصــدر إلى الثقافة، قد نلجأ إليها، فنفيد منها، ونصبح مثقفين، وقد نلجــأ إليها فلا نفيد منهــا، وتغيب في سلوكياتنــا، فيغيب مفهــوم الثقافة بالتالي. الثقافــة ليست مجرد المعرفــة، ليست مجرد زيادة حصيلة المعرفة، ولا مجرد إضافة أرفف

جديدة من المعلومات في داخل الذهن الإنساني لكنها إسهامات متجددة، ومطلوبة، في تحقيق التفاعل بين المرء والعالم الذي يحيا فيه، وفي تعميق رؤيته الأكثر اتساعاً للأفراد، وللجماعة التي ينتسب إليها، وللعالم.



القول بأن المرء حصيلة ثقافية يحتاج إلى مراجعة، الأدق لأن المرء حصيلة معرفته، وهي معرفة تشمل كل ما أقرأه، وأستمع إليه، وأشاهده وأختبره، لذلك فإن القول -مثلاً. بأن ثقافتنا مصدرها الثقافة الغربية، فالمثقف العربي إذاً حصيلة غربية «أي إنه لا صلة لفكره في أعماقه بطبقته وأرضه» ..هذا القول يلغي المخزون المعرفي الذي يعد الموروث الشعبي حصيلته الأهم، إن كل ما حصله الإنسان العربي من معرفة مصدرها الكتب الغربية، لا يلغي ما في داخله من موروث لا يقتصر على أعوام حياته وحدها. وإنما يمتد آلاف السنين، هي عمر الموروث الذي تشكلت منه حضارة الشعب العربي. يحدد مالك بن نبي الثقافة بأنها صله ثلاثية متبادلة بين أسلوب الحياة في المجمع وسلوك الأفراد فيه، بحيث إذا اختل أحد الأطراف الثلاثة، يتدخل الطرفان الآخران للتعديل حتى لا يحدث نشوز في المجتمع، فالثقافة هي هذه الصلة الثلاثية المتبادلة بين أسلوب الحياة وسلوك الأفراد.. وحسب اجتهادي الشخصي، فإن الثقافة بمعنى قراءة

الكتاب، وسماع المقطوعة الموسيقية، ومشاهد المسرحية أو الفيلم.. هذه الثقافة ليست سوى «معرفة» يتعلم المرء جديداً يضيفه إلى مخزونه المعرفي، أما الثقافة -بالمعنى الذي أقدره- فإطارها السلوك، الفعل، التصرف. المثقف هو الإنسان ذو المعرفة والموقف الحضاري في آن. لا قيمة لقراءة الكتب وسماع الإذاعات ومشاهدة المسرح والسينما والقنوات الفضائية، ما لم يلتحم بذلك كله سلوك يعنى بالتطبيق الإيجابي والفعال لكل ما حصله المرء من معرفة. إذا أفاد المرء من معرفته في تصرف إيجابي، فذلك تصرف مثقف، والثقافة صفة يصح أن نطلقها على صاحبه، ثمة متعلمون يحملون في رؤوسهم ما حفظوه، دون أن يشغلهم التطبيق، يفيدون من ذاكرتهم الحافظية أو الاستيعابية، لكنهم لا يحاولون الإفادة مما أودعوه ذاكرتهم في الإضافة والتطوير. وأستعير من أستاذنا زكي نجيب محمود قوله إن الثقافة هي الروح التي تسري لتدفع ذلك البناء المعرفي، المعلومات والعلوم، نحو غايات معينة، يريد الإنسان تحقيقها، الثقافة ليست محصولاً من معارف ومعلومات في حد ذاتها، بل هي الزهرة التي تنبتها تلك المعلومات والمعرفة، وإن لم يعتبر الرجل من الثقافة المعلومات والخبرات المكتسبة من ممارسة الحياة العملية، أو العلوم التي تستخرج من تلك المعلومات والخبرات قوانينها. الثقافة إذاً ليست مجرد معلومات نظرية، لكنها حصيلة لجميع المعلومات التي يكتسبها المرء خلال حياته، واستخدامها بصورة مفيدة وإيجابية وفعالة، وبتعبير آخر، فإن المثقف ليس هو الذي يملك أكبر قدر من المعرفة، لكنه الذي يملك أكبر قدر من الوعي لقد تحقق له الوعي بالمعرفة، وأفاد من هذا الوعي في تقرير المناسب والأفضل والأجمل، التصرف في ضوء سلوكيات تحاول الصواب. والقول بأن المثقف هو ذلك الذي يعرف من كل شيء خلاصته واعتبار العقاد مثلاً لذلك المثقف، ينطوي على مغالطة، لأنه لا يوجد في عصرنا من يعرف من كل شيء خلاصته، ثورة المعلومات جعلت السير في مساحتها الواسعة أمراً مستحيلاً. ولو أن المثقف العظيم سقراط جاء في زمننا الحالي، فإنه سيواجه موقفاً أكثر تعقيداً من الموقف الذي واجهه المنيكلي باشا في حديث عيسى بن هشام. ستبدو «ثقافة» الرجل لا شيء أمام «ثقافة» أي طفل في المرحلة الابتدائية فهو إذاً كان قد حصل -في عصره- على معرفة تفوق ما كان لدى الآخرين، وأفادت منها ذاكرته الحافظية، واستيعابه، وإجادة استخدامه لمخزونه المعرفي. حصل الرجل على المعرفة، أما الثقافة، فهي السلوكيات،

أو التصرفات، التي أفادت مما حصل عليه من معارف. الثقافة خطوة تالية بعد التعلم، بعد المعرفة، مرحلة ما من التعلم، قد تكون أولية أو عالية، إنها كما يقول أندريه مالرو -ما يأتي فيما بعد..

إن المرء الذي يرافق، أو يلي «معرفته» فعل إيجابي، يضيف ويطور، هو الذي يصلح لأن تطلق عليه كلمة «مثقف». ومن الخطأ أن أقصر الثقافة على قطاع محدد، ومحدود، من أفراد المجتمع، لأن المعرفة -إذا أفاد منها المرء- بصرف النظر عن مستواه التعليمي- تصنع إنساناً مثقفاً، بل إن الجهل بالقراءة والكتابة لا يحول دون تحصيل قدر كبير من المعرفة، وممارسة الفعل الثقافي. وإذا كانت الثقافة تعني الحضارة بالإنكليزية، فإن الحضارة -كما تتحدث عنها دائرة المعارف البريطانية- هي «مجموعة نتائج العمل الإنساني في إطاره الاجتماعي على أرض محددة، وعبر زمان معين، أي مجموع أساليب المعيشة التي يتقاسمها أفراد جماعة من البشر من مبان وعلوم وفنون ومعتقدات وتقاليد إلخ». وكما يقول ديهاميل، فإن الحضارة إذا لم تكن في قلب الإنسان، فإنها لن تكون في أي مكان، الثقافة لا توجد إلا بوجود المجتمع، والمجتمع لا يقوم ويبقى إلا على الثقافة، إنها طريق متميز لحياة الجماعة، ونمواً متكاملاً لحياة أفرادها، فهي إذن تعتمد على وجود المجتمع، وتمده بالأدوات اللازمة لاضطراد الحياة فيه، تستوي في ذلك الطاقات البدائية والمعاصرة (تقديم كتاب نظرية الثقافة - ت.علي سيد الصاوي- مراجعة وتقديم: الفاروق زكي يوسف).

ثمة فارق بين المتعلم، أي الذي حصل على المعرفة، وبين المثقف، وضرب أندريه مالرو مثلاً في الفرق بين المتعلم والمثقف، بعالم الكيمياء الذي يحيا داخل معمله، ولا تثيره قضايا العالم الثالث. هذا هو المتعلم. أما المثقف فإنه «ذلك الذي يمتد باهتماماته خارج دائرة الذات، وتزداد ثقافته كلما اتسعت دائرة اهتماماته». وربما كان المثقف -كما أشرنا- غير متعلم، والعكس -بالطبع- صحيح.

المعرفة بعد مهم في الثقافة، لكنها ليست كل الأبعاد، ثمة أبعاد أكثر أهمية تجاوز التلقي السلبي، فتحيله فعلاً إيجابياً لصالح الفرد والجماعة والبيئة، الثقافة تالية للمعرفة السلوك هو التطبيق لما نتعلمه، لما نحصل عليه من معرفة، بمعنى أن المعرفة هي النظرية، أما الثقافة فهي التطبيق، وقد نتعلم النظرية، لكننا لا نحاول التطبيق، والعكس -هنا- ليس صحيحاً، ولعله يمكن القول إن المعرفة -أو التعليم- هي وساطة

نقل الثقافة، أوافق على أن الثقافة «عناية بالذهن كي يعطي مردوداً أفضل، كما أن الزراعة هي عناية بالأرض كي تعطي مردوداً أفضل». وكما يقول إدوار هيربو، فإن الثقافة هي ما يبقى عالقاً بالأذهان عندما ننسى ما تعلمناه على مقاعد الدراسة. لقد تعددت تعريفات الثقافة، فبلغت ما يزيد على مئة وستين تعريفاً، وفي أحد تعريفات الثقافة أنها علاقات معينة تؤلف بين الأفراد في المجتمع، وتنظم وظائفهم الإنسانية التي تنبني على أساسها عقائدهم ومعايشاتهم الأسرية والسياسية والاقتصادية والسلوكية والترفيهية..

وهذا التعريف -كما نرى- يرتبط -في أغلبه- بالفعل، وليس بمجرد التلقي، الثقافة هي الفعل الإيجابي، لصالح الفرد والجماعة، أما الاكتفاء بالتلقي فيظل مجرد معرفة، وإذا كانت الثقافة ترادف الحضارة بالمعنى الأوروبي للكلمة، فإن الحضارة لها دلالاتها العميقة المتعددة، أما المعرفة فإنها تقتصر على مجرد التحصيل المعرفي دون أن ترافقه محاولة للتطبيق وكانت الثقافة عند اليونانيين القدماء، تدور بين الناس في معاملاتهم اليومية، مثلها مثل اللغة، فلا تفرض نفسها عليهم بوجود مميز. المثقف -في أحد التعريفات- هو من توجد لديه نظرة للحياة، والثقافة بمعنى أن نعرف ما كنا نجهله، ونستمع إلى ما لم نستمع إليه من قبل، ونتعرف إلى أشياء جديدة في حياتنا، ثم ينتهي الأمر، إنما هو ترف لا تحتمله حياتنا الحالية بكل ما تعانيه من ضغوط اجتماعية واقتصادية وسياسية. الثقافة معرفة وتطبيق، أعرف الشيء، أتعلمه، فأحاول أن أفيد مما عرفته وتعلمته في إضافة الجديد، المثمر والإيجابي، إلى حياتي، وحياة المجتمع الذي أنتمي إليه، ثقافتنا تبين عن نفسها في كل تصرفاتنا: في النوم والصحو والقراءة وتناول الطعام والتحدث والفسحة واللعب وإقامة الصداقات وتجميل البيت والعناية بالكتاب واختيار الأثاث إلخ.. وكما ترى ماري دوغلاس Mary Douglas فإن تطبيقات نظرية الثقافة لتفسير أمور مختلفة، تبدأ بأساليب حفظ الطعام، والدلالة واضحة في قول ايليا اهرنبورج «أنا أكثر إيماناً بأهمية التقدم الثقافي للشعب، مني بتقدم الفن نفسه، لأن الجمهور الواعي الذي يفرض على الفنان السمو والارتفاع» (الطليعة -آذار١٩٦٧).

الإنسان المثقف لن يقبل بواقع متخلف إنه -في الأقل- سيعرف القيمة المادية للأشياء. ويحضرني ما قاله حكيم إفريقي: «إن الثقافة تستطيع أن تأخذ الإنسان إلى تل أعلى مما يمكن أن نرى عند الأفق، ثم تجعله ينظر فيما

وراءه» إنهـا -في تعبير آخر- هي التي تميز الجنس البشري عن غيره من الأحاسيس، فهي -الثقافة- تؤكد الصفة الإنسانية في الجنس البشري.

**الثقافة سلوك..**

وكما يرى روبرت بيرستيد فإن الثقافة هي «ذلك الكل المركب الذي يتألف من كل ما نفكر فيه، أو نقوم بعمله، أو نتملكه كأعضاء في المجتمع»، لذلك فإن المتعلم -بدءاً من الحاصل على أدنى الشهادات، إلى الحاصل على الشهادات العليا، ليس مثقفاً بالضرورة، إنه قد يكون حاصلاً على الماجستير، أو الدكتوراه، لكن سلوكه غير ثقافي، ويصعب تصنيفه كمثقف، وقد لاحظت أن صديقاً لي، يعتبره الكثيرون من خاصة مثقفينا، كان يضع نفسه في مأزق عندما ينفعل بمناسبة وبلا مناسبة، وربما ضرب مكتبه بقبضة يده، ووجه إلى محدثه -أياً كان سنه أو مكانته- عبارات يضطر إلى الرد عليها بعبارات مماثلة، أو أقسى منها، وأذكر أني قلت لصديقي: أنت تتصور أن الثقافة قراءة ومعرفة، وأنا أثق أن الثقافة سلوك، إن سلوكنا انعكاس لثقافتنا، ولا قيمة لمعرفة لا نترجمها لتصرفات.

أذكر وصف سارتر للمثقف بأنه «رجل معرفة، إلا أنه رجل معرفة عملية، لأنه لا يوجد الآن فرق حقيقي بين المعرفة النظرية والمعرفة العملية، إنه العالم أو الطبيب أو التكنيكي أو القانوني أو الكاتب أو الفيلسوف أو الفنان، الذي يعنى بتكوين نفسه في تناقض داخل المجتمع البرجوازي. ولكن ليس كل هؤلاء الناس يقومون بهذا التكوين لأنفسهم، فهناك علماء يعيشون في حالة من القلق ويتعامون عن رؤية الأمور. وهناك من يريدون -بموافقة السلطات- إضفاء هذا التناقض على غيرهم، فهم الذين أطلق عليهم عبارة كلاب الحراسة، هؤلاء لا نسميهم مثقفين، لأن ما من أحد يسميهم مثقفين» (الطليعة -نيسان١٩٦٧). خلاصة الأمر أن المثقف ليس هو الذي يعرف، فالثقافة -كما قلنا- غير المعرفة أو هي غاية المعرفة، وقد يحصل المرء على المعرفة، لكن سلوكياته تنأى عن أن يكون مثقفاً. إنه لا يسلك سلوك المثقفين، لا يسلك سلوكاً متحضراً. وإذا كان من تعريفات أنها مجموع المعارف المكتسبة، فإني أضيف إلى ذلك التعريف عبارة: وأسلوب الإفادة منها، إنها -وأرجو ألا أكون قد أسرفت في التوضيح- وربما التبسيط -تعنى- في بعد مهم -إفادة المواطن من كل التطورات العلمية والتقنية والاقتصادية والاجتماعية التي يشهدها عالمنا المعاصر.

**متى نصف الإنسان الذي لا يجيد القراءة والكتابة بأنه مثقف؟**

المثقف -في تقديرينا- هو الذي يستمد ثقافته من الكتب والخبرات الشخصية وخبرات الآخرين والتأمل وطرح الأسئلة، بحيث تتشكل لديه رؤية، يسهل تطبيقها، يقول الرجل في قصة نجيب محفوظ «حارة العشاق»: «الثقافة أن تعرف الناس، أن تعرف الأشياء والعلاقات، ونتيجة لذلك ستحسن التصرف فيما يلم بك من أطوار الحياة».. الثقافة ليست ترفاً مقصوداً لذاته، إنها كما أشرنا -تتصل بالحضارة اتصالاً وثيقاً، فهي مجموعة القيم والأنساق الفكرية إلى تميز شعباً أو مجتمعاً معيناً، وتعريف آخر بأنها أساليب التفكير ونوعية المعرفة والنظرة العامة إلى العالم التي تميز فرداً أو جماعة معينة داخل المجتمع الواحد. وإذا كان للثقافة وجهها المادي المتمثل في الاقتصاد والعلم والتكنولوجيا، فإن لها وجهها المعنوي المتمثل في الأخلاقيات والتقاليد والمعتقدات وأنماط السلوك والخبرات إلخ، إنها تلخيص للتراث الإنساني، واستشراف لمستقبل الإنسانية في الوقت نفسه، ولعله يمكن القول إنه توجد ثقافات بقدر ما توجد -أو كما توجد- جماعات بشرية، ثمة ثقافة سلبية تسيطر عليها الخرافة والتواكلية والأفكار القدرية والاستسلام للظروف القائمة وفقدان الطموح، وثمة ثقافة إيجابية تستهدف التطوير والإضافة واكتساب الجديد. والتعامل بلغة العصر. ويقول ديهاميل: «إن نظام الثقافة الذي يستحيل فيه التفكير والاختيار، إنما هو في الحقيقة تقويض لما كان يسمى حتى اليوم، ثقافة». إنها كالإيمان الذي لا يكفي أن نطلبه، لنناله، وكان مونتيني يفرق بين حشو الذهن بالمعلومات وبين تكوين العقلية السليمة، والمعنى -بالطبع- لا يخلو من دلالة..

الثقافة سلوك، أسلوب حياة، تأثر ومحاولة للتأثير، تصرفات نجد في تطبيقها فائدة لنا، وللآخرين، ليس المثقف من يعرف أكثر، الثقافة -هنا- تتراجع، لتحل محلها المعرفة، تتقدم الثقافة إذا بدأنا في استخدام ما تعلمناه، ما نعرفه وكانت الثقافة الحقيقية -في تقدير فلاسفة عصر النهضة- هي تلك التي لا تقتصر على شحن الذهن بالمعارف والمعلومات، لكنها تستهدف تزويد المتلقي برجاحة الحكم، الإنسان المثقف لن يقبل بواقع متخلف، وإنما سيبذل كل جهده لتطوير ذلك الواقع. إنه -في الأقل- سيعرف القيمة المادية للأشياء، ويحضرني ما قاله إفريقي حكيم «إن الثقافة تستطيع أن تأخذ الإنسان إلى تل أعلى مما يمكن أن نرى

عند الأفق، ثم تجعلــه ينظر وراءه». وهي - كمــا يراها إدوارد تايلــور «كل مركب يشتمل على المعرفة والمعتقــدات والفنون والأخلاق والقانون والعــرف، وغير ذلك من الإمكانات أو العادات التي يكتسبها المرء باعتباره عضواً في المجتمــع» إنهــا «طريقــة العيش في شتى نواحيه، مجموعة القيم التي تواجه الإنسان، وتسـيره، وتقدم لــه المعايير التــي يوازن بها بــين الأشياء والمواقــف ليختار» (زكي نجيب محمود: تجديد الفكر العربي٦٩). ومن هنا، جاء وصف ديهاميــل للجريدة بأنها ضرورية لإنســان زماننا الحالي، إنهــا إفطار الصباح بالنسبــة لــه، تفتح عينه عندمــا ينهض من فراشه، فتوقظه، وتلقــي إليه بمجموعة من الوقائع والآراء. الثقافة هي المفتاح السحري للإفادة من الماضــي، والتعامل مع الحاضر، واستشــراف المستقبل، إنهــا -في المجتمعات النامية خاصة -تعنــي إفادة المواطن من كل التطورات العلمية والتقنية والاقتصادية التي يشهدها عالمنا المعاصر، فهو قد يفكر -ولعله يحاول بالفعل- أن يستخدم أساليب الزراعة الحديثة بدلاً من تلــك التي يستخدمها منذ فجر حضارته، ومن ثم يوفر كثيراً من الوقت والجهــد، ويحقق إنتاجــاً أخصــب وأوفر، وهو لــن يكرر مأساة طــه حسين، حين فقد نور عينه بتأثير «الششــم» الذي كانت تعالج به الأم رمداً أصابــه، إن حاجتنا إلى الطعام ليســت ثقافة في عادات الطعــام في اختيار أنواعــه، وطريقــة طهوه، ووسيلــة تقديمه، وأدوات تناوله من ملاعــق وشوك وسكاكين وأطباق وغيرها، وكما يقول الرئيس الفرنسي الراحل بومبيدو، فإن الثقافة «بحكم رسالتها وتفاعلها تحمــل في طياتها بذور التطور، بل وحتى الثورة، فالتفكير معناه الحكم، والثقافة إذ ترفضــ حتماً قبــول وضع سبــق لها أن انبثقت منه، فإن غايتها الطبيعية هي إصدار حكم على ذلك الوضع، وبالتالي تمهيد السبل أمام التغيير، فليست هناك ثقافة دون إعادة نظر في الآراء والمعتقدات الموروثة».

ومن المؤكد أن المزارع سيتخلى عن الكثير الضــار من الأمثــال والخرافــات والعادات والتقاليد، ارتــكازاً إلى معرفته -مثلاً- بأن التغاضــي عن الألم قد يعنــي إهمال البواكير الأولى لأحد الأمراض الخطيرة، وأن التمسك بالنظافة يحفظ على الإنسان صحته وحياته، وأن استشــارة الطبيب أضمن من الركون إلى عــلاج «خبير» وأن المياه النقية هي الصالحة للشرب بعكس ميــاه النهر، وإذا لم تكن هناك طلمبة ميــاه، فلابد مــن أن يرشح الماء قبل استخدامــه، ويتوصل إلى حقيقــة أنه توجد

أنــواع جديدة من البذور تعطي ثماراً أفضل، ويثــق بضرورة تطعيم الدجــاج ضد الكوليرا ويدرك أهمية التسميد الكيماوي إلخ..

ثمة مقولــة إن الثقافة هي الأداة الفعالة التــي تسمح لكل فــرد أن يعلو علــى نفسه، أذكــر روايــة طريفة عن تطلعــات أثيرت في قريــة هنديــة، لامتلاك نوع مــن القمصان شاهده أهــالي القرية في الأفــلام، واضطر ترزي القرية للذهــاب إلى السينما، ومحاولة نقل تفصيلة القمصان المتمدنة، حتى يحقق للقرويين مــا يطلبونه، ويقول الراوي -ولبور شــرام- إنه قد تكون القفزة كبيرة من التطلع لقنصــ جديــد. إلى التطلع لعظمــة الدولة ورخائهــا، وأسمــح لنفسي بــأن أضيف أن القفزة قد تكــون كبيرة بالفعــل لكن الواقع الــذي نحياه يرفض -فيمــا أتصور- حكاية الأرنب الذي اعتمد علــى سرعته في القفز، فلــم يصل إلى هدفــه، ووصلــت السلحفاة، وربمــا يكفي أن نشــير إلى المثل الصيني عن الألف ميل التي تبــدأ بخطوة واحدة. كذلك فإن الإنسان «المثقف» سيتردد طويلاً قبل أن يصدق إحدى قصصــ العفاريت التي تظهر علــى شاطئ الترعة ليــلاً، أو يؤمن بما قاله «المنجم» عن المال الذي سيؤول إليه من أحد أقاربه، وهو سيــترك للقضاء مهمة الثأر من قاتــل أبيه، بدلاً من أن يضيــع حياته وحياة الآخرين، في القصاص لنفسه بيده، ويحاول المشاركة في الحياة السياسية باعتبارها واجباً قوميــاً إلخ ومن الطبيعــي أن ثقافة الفرد - هنا- ستكون هي المنطلق لتحقيق قيام الأسرة بــدور «القناة الأساسية لنقــل الثقافة» على حد تعبير إليوت- «فلا إنسان ينجو تماماً من نوع الثقافة التي اكتسبها من بيئته الأولى، أو يتجاوز درجتهــا تماماً». بل إننا نوافق تماماً علــى رأي إليــوت بأن قناة الأســرة بالذات، تظل أهم بكثير من سائر قنوات نقل الثقافة، وعندما تعجــز الأسرة عن القيــام بدورها، يجب أن نتوقع انحسار ثقافتنا، رغم اختلافنا الموضوعي مع غالبيــة الآراء التي يتناول بها إليوت قضايا الثقافة عموماً..

كلمــة Culture الفرنسيــة مشتقة من كلمــة Cultus اللاتينية، التــي تعني ثلاثة معان: زراعة، تربية، ثقافــة، والارتباط بين هذه الكلمات الثلاث يوسع من معنى الثقافة ودلالاتها. فــ «المثقف» لن يقــف بما تعلمه عند حــد المعرفة، لكنه سيحــاول تطبيق ما تعلمه لتطويــر حياته، بل إنــه من الطبيعي أن يحاول المثقف التأثــير في البيئة المحيطة بــه، يبدأ بالبيــت، فيكون -بقــدر ما تسمح موارده المالية- مكتبة صغيرة، يقبل المتعلمون من أفــراد الأسرة على قراءتهــا، وقد يعنى بتعليــق مناظــر جميلــة من مجــلات ملونة

يشغل بها مساحات الجدران الفارغة، وربما يمتد تأثيره إلى خارج البيت، إلى القرية في مناقشاته الجادة والمثمرة، وفي إعارته إلى من ينشد القراءة من أبناء القرية..

لقد تمنى الشاعر يوماً، بأن يتساوى القلم والمدفع، وأن يوضع القلم مع الحديد ضمن الصناعة الثقيلة فالثقافة -بحق- هي الصناعة الثقيلة للمعرفة، الثقافة الحقة -على حد تعبير فؤاد زكريا- في هذا الكل يطوي تحته تفكير الإنسان وسلوكه، نظره وعمله، تأمله وإنتاجه، علمه وحكمته، الثقافة ليست جهداً جزئياً يشمل جانباً واحداً من جوانب نشاط الإنسان، بل هي حصيلة كلية تضم شتى جوانب النشاط البشري في إطار شامل موحد، بل إنه ليمكنني القول -ببساطة- إن الدولة المتقدمة ستظل حلماً وردياً، ما لم يصبح تحقيق الثقافة بعداً أساسياً في حياتنا اليومية.. لا معنى للثقافة دون ارتباط بالحياة.

☆ ☆ ☆